# تعاطي الأديان مع وباء كورونا

د.عبد العزيز راجل
*باحث في الفكر الإسلامي المعاصر*
*الدار البيضاء المملكة المغربية*
*rajilaziz@gmail.com*

## تقديم

وباء كورونا الذي حلّ بالعالم - واسمه العلميّ كوفيد ١٩ - انتشر انتشارًا سريعًا، وفاجأ الجميع بقساوته وفتكه. إثر ذلك، تبدّل، بين عشيّة وضحاها، نمط عيش الإنسان، وتغيّرت حياته، وأضحى الخوف من الموت، والهلع من الإصابة به، هاجس كلّ الناس. لم تعد بلدان العالم منشغلةً بشيء آخر إلا بالتفكير في الحدّ من انتشار هذا الفيروس، وتقليص حجم الإصابات والوفيّات المتصاعدة، وتوعية الناس عبر اتّخاذ الإجراءات الاحترازيّة. وبدت الانسانيّة جمعاء في سفينة واحدة، مشكلها واحد، إمّا أن ينجو الجميع وإمّا أن يغرق الجميع.

لقد دلّ هذا الفيروس العالميّ الرهيب على عجز الإنسان وضعفه رغم تفوّقه العلميّ والتقنيّ. فالعلم وحده غير كافٍ لحياة الانسان، ولذلك لا بدّ له من شيء آخر كالإيمان، لأنّ ما حدث وما يحدث وما سيحدث في الكون والطبيعة لا يخرج عن مشيئة الله وقدرته. فالملاحظ أنّ وباء كورونا لم يميّز بين الناس في الشرق والغرب، ولا حتّى بين أصحاب البشرة السوداء والبيضاء، ولم يميّز أيضًا بين يهوديّ ومسلم ومسيحيّ ومجوسيّ. لذلك، وأمام هذا العجز الكامل للإنسانيّة تجاه مخلوق/فيروس مجهريّ لا يُرى بالعين المجرّدة، قلّت حيلة الإنسان، ولم يبقَ له سوى الالتجاء إلى الدين بحثًا عن الطمانينة والسكينة والأمن، عساه يخفّف من وطأة الخوف من الموت.

إنّ ظاهرة الأوبئة والجوائح قديمة قدم الانسان، والجدل بشأنها، وبخاصّة الدينيّ، قديم هو الآخر. بيد أنّ ميزة العصر الحاليّ تكمن في التقدّم الهائل الذي شهدته البشريّة على الصعد شتّى، ولا سيّما في المجال الطبّيّ، وتقنيّات التواصل الحديثة. ضمن هذا السياق، ارتأينا أن نتناول موضوع وباء كورونا من زاوية تمثّل الأديان له، وكيفيّة التعاطي معه بشكل مجمل.

### مواجهة الديانات للأوبئة قديمًا

أصابت البشريّةَ عبر تاريخها أوبئةٌ عدّة غيرت مسار التاريخ، ومحت آثار حضارات، وطَوَت كثيرًا من «محاسن العمران» على تعبير ابن خلدون. وشهد التاريخ الإسلاميّ أيضًا أوبئةً وجوائح كان أشهرها طاعون عمواس (١٧-١٨هـ) زمن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، تلتها أوبئة أخرى ضربت العديد من البلدان العربيّة في المشرق والمغرب والأندلس. وقد خصّص باحثون في التاريخ، وخصوصًا تاريخ المغرب العربيّ، أطاريحهم لهذا الموضوع متناولين إيّاه من الجوانب كافّةً.

وارتباطًا بما أشرنا إليه آنفًا، أي مواجهة الديانات للأوبئة، ثمّة إشارة في الكتاب المقدّس (العهد القديم) إلى وضع احترازيّ دعا إليه أتباعه عند حلول الوباء بهم، يماثل ما يسمّى بالحجر الصحّيّ اليوم: «هلمّ يا شعبي وادخل مخادعك، وأغلق أبوابك عليك، توارَ قليلاً إلى أن يجوز السخط» (أشعيا ٢٦/٢٠). قد لا يكون هذا الوضع الاحترازيّ هو الوحيد في ذلك الزمن. ففي آية كريمة من سورة البقرة، يستند عليها بعضهم للقول بأنّ القرآن أشار إلى الأوبئة، قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» (البقرة ، الآية ٢٤٣).

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «...كانوا أربعة ألاف خرجوا فرارًا من الطاعون. قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، حتّى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا، فمرّ عليهم نبيّ من الأنبياء، فدعا ربّه أن يحييهم فأحياهم...». إلى جانب تفسير ابن كثير، هناك تفاسير ذكرت اسم القوم وهم بنو إسرائيل. والنبيّ الذي دعا ربّه إلى إحيائهم هو حزقيال، والقرية التي وقع الطاعون فيها تسمّى داوردان. وقيل إنّ فرارهم ليس من الوباء، بل فرّوا من القتال والجهاد، الذي أمرهم به أحد ملوك بني إسرائيل. وبالرجوع إلى سفر حزقيال، نجد القصّة مختلفةً، وقد وردت تحت عنوان فرعيّ هو «العظام اليابسة». أمر الله حزقيال بالخروج إلى وادٍ فيه عظام يابسة أحياها الله أمام عيني هذا النبيّ، ولم ترد إشارة إلى سبب خروجهم: «لذلك تنبّأ وقُلْ لهم: هكذا قال السيّد الربّ: هاءنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي، وآتي بكم إلى أرض إسرائيل، فتعلمون أنّي أنا

الربّ عند فتحي قبوركم وإصعادي إيّاكم من قبوركم يا شعبي، وأجعل روحي فيكم فتحيون، وأجعلكم في أرضكم، فتعلمون أنّي أنا الربّ تكلّمت وصنعت، يقول الرب» (حزقيال ٣٧: ١٢ - ١٤). وسواء كان خروجهم خوفًا من القتال أو من وباء قاتل، كلّ هذا لم يغنِ عنهم من الموت شيئًا، فالآية الكريمة تشير إلى قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة.

كما شهد الدين الإسلاميّ، عبر مراحل تاريخه، تعاطيًا مع الوباء وفق توجيهات السنّة النبويّة، ومن أبرزها ما رواه عبد الله بن عباس في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إِذَا سَمِعْتُمْ به بِأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإِذَا وقَعَ بِأَرْضٍ وأَنْتُمْ بهَا فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه»، والحديث الذي رواه أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: «لا يُورد مُمرِضٌ على مُصحٍّ». وفي حديث آخر عن أُسامةَ بنِ شَريكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قال: «قالَتِ الأعرابُ: يا رسولَ الله، ألَا نتداوَى؟ قال: نَعمْ، يا عبادَ اللهِ تداوَوا؛ فإنّ اللهَ لم يَضَعْ داءً إلَّا وضَعَ له شفاءً، أو قال: دواءً إلَّا داءً واحدًا، قالوا: يا رسول اللهِ، وما هو؟ قال: الهَرَمُ» (رواه الترمذيّ في سننه، قال حسن صحيح رقم ٢٠٣٨)، وذلك بالإضافة إلى أخذ المسلمين بكلّ الأسباب المؤدّية إلى الوقاية من الوباء.

ومع تطوّر التكنولوجيا، ولا سيّما الطبّيّة، شهدت الأزمنة الحديثة إجراءاتٍ وقائيّةً أكثر تقدّمًا من سابقاتها ساهمت في التقليل من عدد المصابين، وإيجاد أدوية ولقاحات، وأصبح الناس أكثر وعيًا وحذرًا من الإصابة بالأمراض المعدية، وكذلك أكثر معرفةً بطرق انتقالها ومصدرها وأعراضها.

## مواجهة الديانات لوباء كورونا حديثًا

حظي الإنسان المعاصر بقوّة في العلم والتقنيّة جعلته يتعاطى مع الأوبئة بشكل أكثر تنظيمًا واحترازًا. ولقد اضطلعت المؤسّسات الدوليّة، مثل منظّمة الصحّة العالميّة، ووزارة الصحّة في كلّ بلد بدور أساسيّ في اتّخاذ قرارات مدروسة تنطلق من مسؤوليّتها السياسيّة والأخلاقيّة في المحافظة على صحّة مواطنيها، ممّهدةً الطريق للمؤسّسات الدينيّة لاتّخاذ قرارها الدينيّ في انسجامٍ تامٍّ مع القرار الطبّيّ والصحّيّ الذي يتوخّى حفظ النفوس/الإنسان من الهلاك، ودفع الضرر عنه.

وأمدّت الأديان السماويّة الإنسان بمفاهيم خاصّة عن الشعور الدينيّ في حال الخوف والفزع من الكوارث والجائحات. بيد أنّ بعض الطوائف والمجموعات الدينيّة في الديانات جميعها رفضت الانصياع للسلطة السياسيّة والصحّيّة في التزام التدابير الوقائيّة مثل الحجر الصحّيّ وتلافي التجمّعات الدينيّة. نذكر على سبيل المثال طائفة الحريديم اليهوديّة (في الكيان الصهيونيّ)، إذ قال الحاخام الحريديّ يعقوب ليستمان إنّ «فيروس كورونا عقاب للمخنّثين». وعلّقت على هذا الموقف الكاتبة جيسيكا آبل: «عندما يقال للسكّان الذين يعتبرون قادتهم الدينيّين معصومين من الخطأ إنّ التوراة ستحميهم، وإنّ مبادئ تطبيق القانون العلمانيّة نازيّة ومعادية للساميّة، سيكون من السهل عليهم عدم الامتثال للأوامر والاستهانة بخطر الفيروس». وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الطائفة اليهوديّة غاية في التشدّد، وترفض رفضًا قاطعًا الاندماج في المجتمع ومكتسبات الحداثة. والغريب أنّها تتعامل مع الكتاب المقدّس بانتقائيّة ووفق قراءة خاصّة بها. وقد سبق أن أوردنا نصًّا من سفر أشعيا يدعو إلى الانعزال في البيوت حتّى تمرّ الجائحة. وقد كان الأَولى بهذه الطائفة أن تكون السبّاقة إلى الالتزام بالمسافة الاجتماعيّة الآمنة وتجنّب الاختلاط.

كما نجد لدى المسيحيّين أنّ بعض الكنائس الإنجيليّة رفضت التباعد الاجتماعيّ، وصرّح بعض قادتها بأنّ المؤمن لا يصاب بكورونا في الكنيسة. يتعلّق الأمر بالكنيسة الإنجيليّة في مدينة ميلوز شمال شرق فرنسا. كذلك سمعنا تصريحات أسقف أسيوط وأسقف المنيا في مصر غير الملتزمة بالقواعد الصحّيّة، وقرأنا عن طائفة شين تشونجي المسيحيّة في كوريا الجنوبيّة التي لم تتعاون مع السلطات.

أمّا لدى المسلمين من الطائفة الشيعيّة، فنجد تصريحات بعض مرجعيّاتهم في إيران والعراق تدعو أتباعها إلى زيارة المراقد والعتبات في ذروة انتشار الوباء غير مبالية بما يحصده من وفيّات، إذ هلك من الناس ما لا يحصى بحجّة أنّ العتبات المقدّسة محصّنة ضدّ الأوبئة ومعصومة من الأمراض. وفي شمال المغرب، قامت مجموعات من الناس، بعد إعلان السلطات حال الطوارئ الصحّيّة، بالخروج إلى الشارع مردّدةً الأدعية والتكبير. ونظرًا لغياب متحدّث باسم هؤلاء، أو قيادة منظّمة مؤطّرة بتصوّر معيّن، فقد دلّ هذا على أنّ الحدث في المغرب كان معزولاً، وأنّه لحظة ناجمة عن تهييج لعواطف الناس. وقد أجمع المغاربة، ولا سيّما العلماء بشوؤن الدين، على أنّ هذا السلوك يخالف الشرع والقانون. ووضّح بعضهم آداب الدعاء وشروطه وضوابطه وقواعده وموانعه في الشرع.

نشير إلى أنّ التجاء الإنسان إلى الله، والتضرّع إليه لرفع الداء، لا اعتراض عليه من حيث المبدأ. لكنّ الاعتراض يكون على طريقة أدائه وتوقيته ومحتواه. تلتجئ الأديان جميعها إلى الصلاة حسب طقوس معيّنة خاصّة بها. وقد خصّص الرئيس الأميركيّ صلاةً خاصّةً لوقاية بلده من الفيروس. كما خصّص أيضًا الواعظ الانجيليّ المشهور كينيث ماكس كوبلاند (Kenneth Max Copeland) دعاءً متلفزًا ادّعى فيه أنّه أحكم قبضته على الفيروس وأنّه سينتهي من بلاده.

لقد أوردنا هذه الاشارات، التي بثّتها وسائل الاعلام على اختلافها، للتأكيد أنّ الالتجاء إلى الله يدلّ على فطريّة التديّن في الإنسان أينما كان ومهما كانت ديانته. والسؤال هنا هو: هل يمكن اعتبار كورونا أحد العلامات المذكورة عن نهاية العالم في الكتاب المقدّس؟ كلّما جرى حدث ما من قبيل هذا الوباء وغيره، يستحضر بعض أتباع الديانتين اليهوديّة والمسيحيّة مقاطع، من سفر الرؤيا مثلاً، لما تتضمّنه من إنذار للبشريّة في شأن المستقبل. في نظرنا، من العسير قول ذلك، لأنّ الأوبئة رافقت البشريّة منذ نشأتها كما ذكرنا آنفًا.

ثمّة قواسم مشتركة بين الديانات حيال التعامل مع الأوبئة والنظر إليها، أوّلها الالتجاء إلى الله كلّ على طريقته، وثانيها تعدّد التفسيرات الدينيّة داخل هذه الديانات، وثالثها ظهور جماعات محدودة العدد ترفض الإجراءات الاحترازيّة والصحّيّة التي تفرضها السلطة السياسيّة. لا شكّ في أنّ هذه المشترَكات لها علاقة برؤية الوجود وتصوّره، بمعنى أنّها مرتبطة بالبعد العقائديّ والإيمانيّ. لذلك، عندما تحلّ بالعالم كارثة من الكوارث الطبيعيّة أو جائحة مثل كورونا، يحتدم الجدل حول تأويلها الدينيّ. فمنهم مَن يعزوها إلى فعل الإنسان. ومنهم مَن يردّها إلى فعل الله. وهناك مَن يُرجعها إلى فعل الطبيعة. وكلّ تأويل يتولّد منه سلوك وتصرف معيّنان.

## خاتمة

تأسيسًا على ما سبق، نخلص إلى نتيجة مفادها أنّ كلّ حقبة تاريخيّة اتّصفت بتعامل خاصّ مع الأوبئة. ويرجع ذلك في الأساس إلى طبيعة البيئة التي كان يعيش الناس فيها، وتصرّف الساسة وأهل الدين وفق ما تمليه عليهم ظروفهم الخاصّة، وذلك بحسب وتمثّلاتهم المعرفيّة حول الوباء.

مع التطوّر الذي شهده الإنسان والتجارب التي مرّ فيها، أدرك المسلمون أنّ القضايا التي ترتبط بصحّة الإنسان، بنتيجة وباءٍ ما، تقتضي العلم والاستفادة من التجربة والبحث عن أدوية للعلاج. وقد أدركوا أيضا بحسّهم الإيمانيّ ورؤيتهم المقاصديّة أنّ الدين جاء لحفظ النفوس ودفع الضرر عنها، لا لقتل الناس أو التسبّب في ذلك.

لذلك، يتعيّن في وقت الأزمات والكوارث والأوبئة تغليب التفكير العقلانيّ في التدبير والتخطيط والتنفيذ، وتلك مهمّة موكولة إلى النخب الحاكمة وأهل الاختصاص من الاطبّاء، فضلاً عن تغليب الأخلاق الإنسانيّة، وتلك مهمة موكولة إلى النخب الدينيّة والمثقّفة سواء كانت أفرادًا أو مؤسّسات. ويمكن القول، بمعنى آخر، إنّ التأويل الدينيّ للوباء يجب أن يتناغم مع آخر التطوّرات في العلم والطبّ، وإنّ العقل العلميّ ينبغي ألّا ينحّي الدين ويستبعده. وفي الوقت ذاته، ينبغي للعقل الدينيّ هو الآخر أن يلتفت إلى العلم ويسترشد به.

نسأل الله أن يرفع عنّا الوباء والبلاء، وعن الإنسانيّة جمعاء.